آيت خباش بمنطقة تافيلالت
الاحتلال الفرنسي وآثاره الاقتصادية والاجتماعية
(١٩٠١–١٩٣٨)

د. عبد الرحمان ملوكي

دكتوراه في التاريخ المعاصر
أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي
مكناس - المملكة المغربية

بيانات الأطروحة

أطروحة دكتوراه بكلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس (المغرب). نوقشت بتاريخ ١١ مايو ٢٠٢٢.

الباحث: عبد الرحمان ملوكي
إشراف: الأستاذ الدكتور سيدي محمد الكتاني
التخصص: التاريخ المعاصر
التاريخ: مايو ٢٠٢٢
لجنة المناقشة:
الدكتور سيدي محمد الكتاني (مشرفا)
الدكتور لحسن أوري (رئيسا)
الدكتور مولاي عمر صوصي علوي (عضوا)
الدكتور الحاج ساسيوي (عضوا)

جاءت هذه الدراسة الموسومة بعنوان: " آيت خباش بمنطقة تافيلالت: الاحتلال الفرنسي وآثاره الاقتصادية والاجتماعية (١٩٠١ - ١٩٣٨)" لمحاولة تفسير دوافع تركيز الإدارة الاستعمارية الفرنسية على قبيلة آيت خباش بتافيلالت تحديدًا أكثر من باقي قبائل المنطقة الأخرى، سواء من حيث الضغط المجالي على حدودها الجغرافية، أو من حيث وضع خطط واستراتيجيات تروم تحويل بناها القبلية وتمظهراتها السوسيواقتصادية والسوسيومجالية، عبر الدفع بها نحو حياة الزراعة والاستقرار، بدل نمط الرعي والترحال. يهدف موضوع البحث إلى كشف النقاب عن جانب هام من جوانب علاقة آيت خباش بالاستعمار الفرنسي، عبر الدور الذي اضطلع به المستعمر في تغيير الأحوال الاقتصادية والاجتماعية لآيت خباش، وما رافق ذلك التحول من تأثير على مجال هذه القبيلة وتغير في نمط عيشها، ومن ثمة استقرارها بمنطقة تافيلالت.

كلمات مفتاحية:

الاستعمار الفرنسي؛ الخزانة الحسنية؛ العلاقات القبلية؛ التاريخ الاقتصادي؛ تاريخ المغرب المعاصر

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2023.343929

مُقدِّمَةُ

شكل موقع تافيلالت الاستراتيجي عاملاً أساسيًا في حدوث العديد من الصراعات والتطاحنات البشرية بمجال هذه المنطقة؛ بسبب رغبة بعض الأفراد أو الجماعات السيطرة على الطرق التجارية ومراكزها الكبرى. وبحكم أن حاضرة سجلماسة مثلت أبرز هذه المراكز، فإنها أضحت في نهاية المطاف موطنًا أساسيًا لانطلاق الدول والسلالات التي حكمت المغرب، ابتداء من المرابطين، ثم الموحدين، فالمرينيين وانتهاء بالعلويين. وبتراجع الطرق التجارية خلال القرنين ١٦ و١٧م واختفائها نهاية القرن ١٩م ومطلع القرن ٢٠م، تضاءلت تافيلالت حتى على مستوى الدراسات التاريخية.

وإلى غاية مطلع القرن ٢٠م، كان المجتمع الفيلالي يغلب عليه الطابع القبلي. حيث كان السكان

يعيشون على أنماط عيش متباينة؛ فمنهم قبائل القصور المستقرة، ومنهم قبائل الرحل المتجولة، ولكل صنف عاداته وأعرافه الخاصة. كما تميز سكان المنطقة بتنوعهم الإثني / العرقي (شرفاء - بني معقل - حراطين ...) واللغوي (أمازيغ - عرب) والديني (يهود - مسلمين)، وشمل هذا التنوع أيضا الوضعية الاجتماعية (أحرار، عبيد) ...، لكن التدخل الفرنسي في منطقة تافيلالت أسهم في إحداث تحولات عميقة مست الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والقبلية، مما سيفرز لاحقًا عن ظهور بنية اجتماعية جديدة مختلفة عن الطابع القبلي الذي ساد المنطقة قبل الفترة الاستعمارية. وقد كانت قبيلة آيت خباش بتافيلالت في مقدمة القبائل التي **تأثرت بالتدخل الاستعماري** بالمنطقة؛ إذ مثل الخباشيون أهم العناصر الأمازيغية التي تضررت من تراجع مداخيل الطرق التجارية الصحراوية، على اعتبار أن تجارها كانوا يجوبون هذه المسالك لعقود طويلة، قصد التجارة ونقل السلع والبضائع.

إن حقل الدراسات في تاريخ الرحل بالمغرب ما يزال بكرًا، خاصةً في شقه المتعلق برحل تافيلات الذي يبدو أن البحث التاريخي فيه لم يخرج بعد من فترته الجنينية؛ على اعتبار أن جل الأطاريح والأبحاث التي تناولت تاريخ منطقة تافيلالت خلال الفترتين الحديثة والمعاصرة، أغفلت تاريخ **كتلة قبلية كبيرة** كانت دائمة التنقل والترحال، مثل قبائل آيت خباش وذوي منيع وأولاد جرير، التي كان لها دور وازن في التحولات السوسيو اقتصادية التي عرفتها واحة تافيلالت خاصة خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

إذ تمثل قبيلة آيت خباش من هذا المنطلق، النموذج الحي الشاهد على تأثير قبائل الرحل على مجريات الأحداث لدى سكان القصور، باعتبار أن الخباشيين كان لهم باع طويل في حماية المستقرين بمنطقة تافيلالت، كما اشتهروا أيضا بهجماتهم وغاراتهم على هؤلاء السكان أنفسهم لاسيما زمن المسغبات والمجاعات، أو خلال سنوات القحط والجفاف. ولم يكن اختيار موضوع آيت خباش - باعتبارهم قبيلة مرتحلة ومستقرة في الوقت نفسه - أمرا اعتباطيا، أو محض الصدفة؛ بل تم ذلك وفق **بحث ودراسة عميقة** لمختلف القبائل المستقرة لواحة تافيلالت، فكان لهذه القبيلة أوفر حظ و**أكبر نصيب** في مجمل الأحداث والوقائع التي شهدتها المنطقة سيما خلال العقود الأربعة الأولى من القرن العشرين.

لذلك جاءت هذه الدراسة الموسومة بعنوان: " **آيت خباش بمنطقة تافيلالت: الاحتلال الفرنسي وآثاره الاقتصادية والاجتماعية (١٩٠١ - ١٩٣٨)**" لمحاولة تفسير دوافع **تركيز** الإدارة الاستعمارية الفرنسية على قبيلة آيت خباش بتافيلالت تحديدًا أكثر من باقي قبائل المنطقة الأخرى، سواء من حيث **الضغط المجالي** على حدودها الجغرافية، أو من حيث وضع **خطط واستراتيجيات** تروم تحويل بناها القبلية وتمظهراتها السوسيواقتصادية والسوسيومجالية، عبر الدفع بها نحو حياة **الزراعة والاستقرار**، بدل نمط **الرعي والترحال**.

١ –أهداف البحث وإطاره الزمكاني

لقد اهتمت جل الدراسات والأبحاث التي تناولت تاريخ تافيلالت بالتاريخ الحدثي والعسكري، وبالجوانب العمرانية والسياسية وعلاقة المنطقة بالمخزن والزوايا وبالسلطة الاستعمارية لاحقًا. حيث يستشف من هذه الدراسات تركيزها على قبائل القصور أو السكان المستقرون، نظرًا لارتباطهم الكبير بالسلطة المخزنية من خلال فئة الشرفاء التي شكلت عنصرًا بشريًا فاعلاً ومؤثرًا في معظم الوقائع والأحداث التي شهدتها المنطقة منذ قدوم جدهم " الحسن الداخل" من ينبوع النخل ببلاد الحجاز أواخر القرن (٨٥/ ١٤م).

في حين لم تستفد قبائل الرحل بتافيلالت من هذه العناية البحثية التي خُصَّت بها نظيراتها المستقرة، حيث ظل تاريخها مغمورًا لدى معظم الدارسين وعموم القراء، باستثناء بعض الدراسات التاريخية النادرة جدًا التي خصصت لهذه القبائل فصولا ضمن مؤلفاتها، سنشير إليها لاحقا. وباعتبار آيت خباش إحدى أبرز هذه القبائل، إن لم تكن أهمها على الإطلاق، بحكم امتداد نفوذها السياسي والاقتصادي بمنطقة تافيلالت لعشرات العقود من الزمن، والذي لم يستطع أي تكتل قبلي أو سلطة سياسية القضاء عليه أو الحد منه، إلى أن جاء الغزو الاستعماري، الذي احتل أرض القبيلة وقوض قدراتها الدفاعية وقوتها العسكرية.

١/١-الأهداف

يهدف موضوع البحث إلى كشف النقاب عن جانب هام من جوانب علاقة آيت خباش بالاستعمار الفرنسي، عبر الدور الذي اضطلع به المستعمر في تغيير الأحوال الاقتصادية والاجتماعية لآيت خباش، وما رافق ذلك التحول من تأثير على مجال هذه القبيلة وتغير في نمط عيشها، ومن ثمة استقرارها بمنطقة تافيلالت.

ويتعلق موضوع البحث بتاريخ **هامش الهامش** واستكمال بعض حلقات تاريخ تافيلالت خلال فترة الحماية. وتتوخى هذه الأطروحة دراسة الأوضاع العامة لقبائل الرحل قبل الغزو الاستعماري للتخوم الشرقية، سواء من حيث نمط عيشها أو تنظيماتها الداخلية وآليات التفاعل بينها، أو من حيث علاقاتها مع قبائل القصور المجاورة لها بما فيهم العناصر اليهودية. وإبراز مساهمة الاستعمار الفرنسي للتخوم الشرقية في تقلص مجال رحل آيت خباش، ومحاصرة ترحالهم والزج بهم نحو الاستقرار بمنطقة تافيلالت. هذا دون إغفال التطرق إلى علاقة آيت خباش بكل من المخزن والزوايا وحدود تأثيرهما في مقاومة القبيلة للغزو الفرنسي، ودور المؤهلات العسكرية والمهارات الحربية للخباشيين في تزايد شراسة مقاومتهم للغزو الاستعماري لإقليم تافيلالت. غير أن الاحتلال الفرنسي لمجال القبيلة خلف آثارا حاولت الأطروحة ملامسة تداعياتها الاقتصادية والاجتماعية على المجتمع الخباش.

٢/١-الإطار الزمكاني

ركزت الدراسة على حيز مكاني ضيق، وهو مجال آيت خباش بتافيلالت، خلال الفترة الممتدة من ١٩٠١ إلى ١٩٣٨؛ إذ تمثل سنة ١٩٠١ معركة تيميمون الشهيرة التي أغار فيها آيت خباش على المركز الفرنسي بتيميمون خلال شهر فبراير مخلفين عشرات القتلى والجرحى في صفوف الوحدات العسكرية الفرنسية، ثم أعادوا الكرة مرة ثانية في شهر مارس ومن ثمة ألحقوا خسائر بشرية جسيمة بوحدات الجيش الغازي، مما أدى إلى تذمر الفرنسيين، الذين اعتبروا نتائج هاتين المواجهتين كارثة عظمى أذلت الجبروت العسكري الفرنسي، ومنه، أعطت القيادة العليا الضوء الأخضر للقادة العسكريين بسحق ومحق كل من وجدوه في طريقهم من المقاومين الخباشيين.

بينما تعبر سنة ١٩٣٨ عن حدث جسيم هو الآخر، يتجلى في اغتيال آخر زعيم للمقاومة الخباشية بمنطقة تافيلالت وهو "أحمد أو ماما باني" الذي قتله الفرنسيون بدعم وتحريض من معاونيهم من القبيلة نفسها. الأمر الذي أدى إلى دق آخر مسمار في نعش مقاومة آيت خباش بمنطقة تافيلالت، ومن ثمة فُتحَ المجال أمام الفرنسيين للتنقيب واستغلال الثروة المعدنية الغنية بالطاوس المركز الرئيس لرحل آيت خباش. كما أنه انطلاقًا من هذا التاريخ، أعطت فرنسا تراخيص للشركات التي لها رغبة في البحث عن المعادن بمجال قبيلة آيت خباش، فضلاً عن تكثيف الجهود من قبل سلطات الحماية قصد دفع باقي رحل القبيلة نحو الاستقرار والزراعة، بالإضافة إلى تشغيل عمالهم في المناجم والضيعات الفلاحية وتوظيف أبنائهم في الجيش.

جدير بالذكر أن التحديد الزمكاني لموضوع الدراسة لم يحل دون تجاوزنا له في بعض الأحيان؛ خاصة إذا كان الأمر يتعلق بالكشف عن الأوضاع التي كانت تشهدها قبيلة آيت خباش قبل الغزو الفرنسي أي خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، من أجل إبراز حجم التحول ومستوى التغير الذي شهدته القبيلة بعد مرحلة التدخل الاستعماري مطلع القرن العشرين. كما شهد المجال المدروس تمطيطًا واتساعًا، حيث وصل إلى التخوم الشرقية وواحات تيزيمي وبوذنيب ودرعة؛ وقد كان الهدف من ذلك هو مقارنة هذه المجالات بمجال الدراسة قصد استخلاص أوجه التشابه والاختلاف وبناء خلاصات تركيبية لمجموع مجالات قبائل الجنوب الشرقي بوجه عام.

٢-إشكالية البحث

شكل الغزو الفرنسي للتخوم الشرقية للمغرب عاملاً أساسيًا في التحولات التي شهدتها قبائل رحل تافيلالت خلال الثلث الأول من القرن العشرين؛ ابتداءً من مرحلة الترحال عبر واحات زوزفانة وبني عباس والعبادلة إلى مرحلة الاستقرار بواحات تافيلالت، وانخراط هذه القبائل في نمط عيش جديد لم يكن لها عهد به فيما سبق، وتعتبر قبيلة آيت خباش من أبرز هذه القبائل التي انتقلت من حياة التجوال والترحال إلى حياة العمران والاستقرار.

وتتمحور إشكالية الأطروحة في **رصد التحول العام الذي شهدته قبيلة آيت خباش جراء التدخل الاستعماري الفرنسي.** وتتفرع عن هذه الإشكالية التساؤلات التالية:

- ما المقصود بآيت خباش، وما الحدود الجغرافية لقبيلتهم؟
- كيف كانت التنظيمات الاجتماعية لآيت خباش، وعلاقتهم بالقبائل المجاورة لهم؟
- ما طبيعة العلاقة التي كانت تربط بين آيت خباش والزوايا من جهة، وبين الخباشيين والمخزن بشقيه المحلي والسلطاني من جهة أخرى؟
- ما أطوار مواجهة آيت خباش للغزو الاستعماري خلال فترة ١٩٠١ - ١٩٣٨، وما أبرز المؤهلات العسكرية والمهارات الحربية للقبيلة؟
- ما حدود آثار الاحتلال الفرنسي على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية لآيت خباش بتافيلالت؟

- هل يمكن اعتبار الغزو الاستعماري المسؤول الوحيد عن تحول نمط عيش آيت خباش من الترحال إلى الاستقرار؟ أم أن هذا الأمر تتداخل فيه عوامل أخرى: كقساوة الظروف الطبيعية وحدوث تحولات على المستوى السوسيو ثقافي، أم أن كثرة الحروب والصراعات القبلية ساهمت في إضعاف هذه القبيلة وإنهاك قواها، ومن ثمة أصبحت لا تقوى على التنقل والترحال، فاستقرت اضطرارا وليس اختيارا؟

٣ - منهج البحث

اعتمدت دراسة موضوع آيت خباش على منهج علمي رصين ومنضبط، سواء في تصنيف وتبويب الوثائق التي استطعنا الحصول عليها، أو في **نقدها وتمحيصها** عن طريق استخدام رؤية شمولية تتضمن **التعريف، والتفسير** ثم **التركيب**، قصد الوصول إلى استنتاجات منطقية تستجيب للإشكالية المطروحة، والأسئلة المؤطرة لها. وفي هذا السياق حاولنا الاستفادة من الوثائق الأجنبية والكشف عن الجانب الإيديولوجي الاستعماري بين سطورها، بهدف دحضه وإبعاده، والرجوع إلى الوثائق الرسمية الوطنية قصد استخلاص ما تتضمنه من معطيات الواقع المحلي (الفيلالي والخباشي على السواء) من أجل تعميق البحث في بعض قضاياه وظواهره.

وقد استفدنا من الانفتاح على بعض العلوم المساعدة الأخرى، ولا سيما **الأنثروبولوجيا** و**السوسيولوجيا** و**الإثنولوجيا**، فاستعنت ببعض أبحاثها في دراسة مجتمع الرحل عمومًا، واستنرت ببعض أدواتها لدراسة مكونات القبيلة وبعض الممارسات اليومية لآيت خباش، وعلاقاتهم بالقبائل المستقرة، والقبائل المرتحلة من جهة، ومع المخزن والزوايا والمستعمر من جهة ثانية. ناهيك عن انفتاح موضوع البحث عن **المنهج الوصفي** و**الإحصائي - الكمي**، خاصة في القضايا التي شهدت تطورات على المستوى الكمي - العددي، التي تضمنتها الجداول ذات البعد الإحصائي - الرقمي، مما مكن من وضع تحليل علمي لهذه المعطيات وفق الصيرورة العامة لمحاور وعناصر الدراسة. كما سعينا قدر الإمكان إلى التزام المرونة والتروي، قبل بناء الاستنتاجات وإصدار الأحكام حول الخلفيات الإيديولوجية التي كان يتحرك وفقها الأجانب في كتاباتهم عن آيت خباش، على اعتبار أن المعلومات والمعطيات التي ضمتها تقاريرهم تعتبر المصدر الجوهري والأساسي لموضوع البحث، ولكن هذا الأمر لا يمنع من جهة أخرى، من تمحيص وغربلة هذه المعطيات والتنبيه بين الفينة الأخرى إلى بعض أحكامها الجاهزة ذات الأحكام المسبقة.

٤ – دوافع اختيار الموضوع

يتجلى الحافز الأساس الذي كان وراء اختيارنا لموضوع آيت خباش في تافيلالت، هو رغبتنا الجامحة في البحث عن **تاريخ الرحل** الذين استقروا بواحات تافيلالت، سيما بعدما خلُصنا في البحث الذي أنجزنها سنة ٢٠١٠م لنيل شهادة الماستر[1] إلى أن تاريخ رحل هذه المنطقة ما يزال مجهولا، سواء لدى ساكنة القصور أو لدى الباحثين والمتخصصين في تاريخ تافيلالت، اللهم بعض الروايات الشفهية المتناثرة هنا وهناك، والتي تتناقلها أفراد هذه القبائل جيلا عن جيل.

كما أسهمت دوافع أخرى في اختيارنا لموضوع الدراسة، نحاول أن نجملها فيما يلي:

- غياب دراسة **علمية أكاديمية شاملة** عن تاريخ آيت خباش بمنطقة تافيلالت خلال الفترة المدروسة (١٩٠١ - ١٩٣٨)، تعتمد الأرشيف الفرنسي منطلقا لها، لدراسة تطورات الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية لآيت خباش زمن الفترة الاستعمارية، واقتصار الأبحاث المنجزة على دراسة الجوانب العسكرية والسياسة وعلى مقاومة القبيلة للاستعمار الفرنسي، وذلك عبر التطرق إلى المعارك والمواجهات دونما الخوض بشكل مفصل في الميادين الاقتصادية والاجتماعية، وتحولاتها العامة عقب التدخل الفرنسي.
- النقص الكبير في الدراسات الأكاديمية التي تعنى **بالتاريخ الاقتصادي والاجتماعي** لمنطقة تافيلالت عمومًا وآيت خباش وقبائل الرحل خصوصا، لاسيما خلال الحقبة الاستعمارية. مما يستدعي ضرورة انكباب الباحثين على هذا المجال التاريخي الخصب وتكثيف الجهود لإماطة اللثام عن صفحات ما تزال مجهولة ضمن التاريخ المونوغرافي لقبائل تافيلالت، التي لم تستوف بعد حقها من الدراسة والبحث.
- محاولة الكشف عن **تاريخ العلاقات القبلية وأنواعها وأصنافها**، سواء منها علاقات رحل - رحل، أو علاقات رحل - مستقرين، أو علاقات مستقرين - مستقرين، وهي أنواع من الروابط قل ما نجدها بين ثنايا الدراسات الحديثة لمنطقة تافيلالت. إذ الغالب على هذه الأخيرة هو تطرقها للعلاقات العمودية: سواء العلاقة بين المخزن والقبائل، أو العلاقة بين هذه القبائل والمستعمر الفرنسي، في حين تظل

العلاقات الأفقية السالفة الذكر شبه مجهولة لدى عموم الدارسين والمهتمين.

- أهمية اعتماد **وثائق الأرشيف الفرنسي** في الكشف عن معطيات دقيقة حول الحياة الاقتصادية والاجتماعية والنفسية لآيت خباش بمنطقة تافيلالت خلال فترة الحماية. الشيء الذي يصعب الوصول إليه اعتمادا على الوثائق المحلية أو المصادر الوطنية المتنوعة بما فيها الرواية الشفهية، وإن كانت هذه المصادر لها أهميتها في بعض الجوانب مثل قبول أو دحض بعض المقولات الاستعمارية. لكن هذا لا ينفي أهمية تظافر الجهود لكل الباحثين والمتخصصين في تاريخ المنطقة من أجل جمع الوثائق المحلية المنتشرة في الزوايا ولدى الأسر المخزنية، إلى جانب تدوين الرواية الشفهية قبل انقراضها مع موت ما تبقى من المسنين.

٥ – دراسة المصادر والمراجع

تطلبت عملية بناء محاور دراستنا في متن متّزنٍ وتصميم متوازن، التنقيب عن المادة المصدرية والمرجعية الضرورية من مخطوطات وأطروحات جامعية ومظان ودوريات ونشرات وتقارير ومراسلات، وجرائد، ورواية شفوية ...، وقد كلفت عملية جمع كل النصوص والإشارات والروايات عن آيت خباش وقتا طويلا، وجهدا كبيرا، قبل الظفر بكم وثائقي هام، تميز بالغنى والتنوع، أسهم دون شك في تسليط الضوء على جوانب ظلت معتمة في التحولات الاقتصادية والاجتماعية لهذه القبيلة خلال فترة الاحتلال الفرنسي. بيد أن جمع المادة الخام المتنوعة، جعلنا نرتاد عدد من الخزانات بالرباط، تتجلى في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية، وأرشيف المغرب، ومكتبة المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، وخزانة الدوريات التابعة لكلية الآداب - أكَدال، وخزانة الأسرة العلوية الشريفة التابعة لمسجد حسان. كما زرنا خزانات أخرى بالمدينة نفسها وهي:

مديرية الوثائق الملكية

حصلنا منها على ما يزيد عن ١٣٠ وثيقة، تمتد تواريخها من فترة حكم مولاي عبد الرحمان إلى فترة حكم مولاي عبد العزيز. وإذا كانت هذه الوثائق في مضامينها لا تلامس جوهر موضوع بحثنا، إلا أنها لا تخلو من إشارات مهمة عن أوضاع الرحل وضمنهم آيت خباش بالتخوم الشرقية خاصة بعد واقعة إيسلي سنة ١٨٤٤م، وما أعقب ذلك من مشاكل حدودية بعد معاهدة لالة مغنية سنة ١٨٤٥م، وتنامي الزحف الاستعماري على هذه الربوع. مما أدى إلى تزايد المراسلات بين هذه القبائل والسلطة المخزنية أواخر القرن ١٩ ومطلع القرن ٢٠م.

الخزانة الحسنية

خلال زيارتنا المتكررة للخزانة الحسنية بالرباط طالعنا العديد من المخطوطات، وتصفحنا فهارس الخزانة التي كان أغلبها يتعلق بعلوم الشريعة: من فقه وعقائد وعلوم اللغة والآداب وما يقاربها، بينما ما يصُبّ في تجاه بحثنا فهو نادر جدا، اللهم بعض المخطوطات التي تحكي تاريخ الشرفاء بسجلماسة؛ وهذا ما جعلنا نعتمد مخطوطا في هذا السياق بعنوان "ظهير حسني في شأن حرْكة سجلماسة" تحت رقم ١٢٣٠٢ ويقع في ١٩٩ صفحة، يتضمن إشارات عن حركة مولاي الحسن إلى تافيلالت لتأديب القبائل الثائرة ولصلة الرحم بين السلطان وأخيه مولاي رشيد وأبناء عمومته، ثم للإطلاع عن كثب على أحوال رحل التخوم خاصة ذوي منيع.

وقد ترددنا على خزانة كلية الآداب ظهر المهراز بفاس، وخزانة كلية الآداب سايس بالمدينة نفسها، وخزانة كلية الآداب بمكناس، وخزانة مندوبية الأوقاف والشؤون الإسلامية، وخزانة فضاء الذاكرة التاريخية للمندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير بالمدينة نفسها.

إن التنقيب الميداني المحلي الذي طال مجال الدراسة، مكننا من الحصول على وثائق متعددة ومتنوعة، خاصة وثائق مركز الدراسات والبحوث العلوية بالريصاني، الذي تمكنا من خلاله الحصول على ما يناهز ٦٠ نسخة من الوثائق المخزنية التي تتحدث عن الأوضاع السياسية والاقتصادية لقبائل تافيلالت، وضمنهم قبائل الرحل وآيت خباش، وتم هذا الأمر منذ سنة ٢٠٠٩م خلال فترة تحضيرنا لبحث نيل شهادة الماستر في موضوع **التاريخ الاجتماعي لتافيلالت خلال القرن التاسع عشر**. وتبرز أهمية هذه الوثائق في إشارتها إلى العلاقة السياسية بين قبائل المنطقة والمخزن المركزي، بالإضافة إلى تطرقها إلى تدهور الأوضاع العامة للرحل بالتخوم الشرقية للمغرب عقب الاختراق الاستعماري لمجالها الجغرافي. فضلاً عن توضيحها لمعطيات مهمة بخصوص الجوانب الاقتصادية والاجتماعية لقبائل تافيلالت والتخوم الشرقية خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

ونظرًا لأهمية الزيارة الميدانية لمجال الدراسة، عملنا على تكثيف زيارتنا لمجموعة من القصور والمراكز الحضرية بتافيلالت؛ بدءا بمركز بوذنيب، على

اعتبار استقرار بعض الأسر من قبيلة آيت خباش في ضواحيه، لكن للأسف لم يسعفنا الحظ في الحصول على أي وثيقة أو معطيات تهم موضوع بحثنا. وزرنا أيضا مركز أرفود الذي لم نحصل فيه سوى على قصائد شعرية تخص رحل ذوي منيع. كما زرنا العديد من قصور واحة تافيلالت أو ما يعرف بالريصاني حاليا، فكانت زيارتنا لبلدية مولاي علي شريف فرصة للاطلاع على منوغرافية قصور وقبائل البلدية، في حين زيارتنا لبعض قصور مقاطعة الغرفة لم تسفرعن أية نتائج إيجابية، بيد أن تجاهنا نحو قصور السفالات وتانيجيوت، كلل بالتوفيق والنجاح.

تكمن أهمية الرواية الشفوية في اعتبارها مصدرًا تاريخيًا، لا يقل أهمية عن باقي المصادر. لذلك، فكتابة تاريخ آيت خباش يتأسس في جزء منه على ما يتداوله الأفراد والجماعات من جيل إلى جيل من أشعار وروايات تؤرخ لملاحم وبطولات هذه القبيلة، خصوصًا فيما يتعلق بجانب المقاومة. وتحقيقا لذلك، أجرينا العديد من المقابلات أثناء زياراتنا المتكررة لمجال الدراسة، خاصة خلال زيارتنا لقصر "إيرارة" بمقاطعة السفالات وزاوية "سيدي الغازي بن العربي" بالمقاطعة نفسها، وأيضا بقصر "مزكَيدة" بمقاطعة تانيجيوت، وقصور مقطع الصفا وأوطارة والطاوس. عموما تميزت الاستجوابات التي قمنا بها بالتنوع الإثني والعرقي للمستجوبين، إذ جمعت جل هذه الروايات بين العرب المستقرين بالقصور، وبين الأمازيغ الرحل الذين استقروا حديثا، سيما مع السيطرة على واحات التخوم الشرقية للمغرب إبان مطلع القرن العشرين. مما أسهم في مقابلة هذه الرويات واستنتاج العناصر المشتركة، واستخلاص الأفكار المتضادة والمتعارضة بينها، بغرض الوصول إلى تصور عام يقربنا أكثر من مسألة "**ظروف وحيثيات استقرار رحل آيت خباش بتافيلالت**".

وإلى جانب الوثائق المادية والشفوية، المحلية والوطنية، اعتمدنا الأصول المكتوبة من مصادر ومراجع، سواء العربية منها أو الأجنبية، والتي أغنت موضوع بحثنا لاسيما في إبراز بعض الإشارات عن المعطيات البشرية والاقتصادية لآيت خباش قبل التدخل الاستعماري. أما الدراسات والأبحاث الحديثة فتظهر أهميتها في توضيح التاريخ المعاصر للقبيلة، خاصة خلال فترة ما بعد الاحتلال الفرنسي، ناهيك عن أهمية كتب الرحلات وتقارير البعثات الأجنبية وبعض المونوغرافيات، في إبراز بعض الخصوصيات الاقتصادية والثقافية والسياسية والعرفية لآيت خباش بتافيلالت، وقبائل الرحل بالمنطقة بشكل عام. في حين شكلت **وثائق الأرشيف الفرنسي** مصدرًا محوريًا في بناء هذا العمل، إذ بعد زيارتنا لمراكز الأرشيف الفرنسي بكل من "نانط" و"باريس" صيف ٢٠١٩م، استطعنا استنساخ مئات الوثائق من الأرشيف الدبلوماسي بنانط والأرشيف العسكري بفانسن " باريس". وبعد اطلاعنا عليها تبين لنا مدى أهمية وغنى وتنوع معطياتها، سواء من حيث الإحصائيات والأرقام الخاصة بالجانب الاقتصادي، أو من حيث تضمنها لمعطيات مهمة عن رحل تافيلالت وعن نمط عيشهم وعلاقتهم بالقبائل المجاورة لهم، وأيضًا علاقتهم بشيوخ الزوايا والمخزن والاستعمار.

كما تضمنت تلك الوثائق أيضا، معطيات متنوعة وغنية عن آيت خباش الذين أفرد لهم ضباط الشؤون الأهلية بمكاتب الطاوس والريصاني وأرفود عشرات التقارير الخاصة بقبيلتهم في تافيلالت، إذ أشارت هذه التقارير إلى عدد قطعانهم، ومقاتليهم، ومواردهم الاقتصادية، وأنشطتهم اليومية، فضلاً عن أعمالهم الهجومية من الغارات والكمائن التي كانوا ينصبونها للقوافل العسكرية والتجارية الفرنسية. لذلك شكلت معطيات الأرشيف الفرنسي بفرنسا عصب متن عملنا، وجوهر بحثنا؛ على اعتبار دورها الفعال في إغناء خطة البحث، وتنويع مضامينه، وتجويد أفكاره، وتذليل صعوباته وهناته، عن طريق ملئ معظم الفراغات التي اعترت مباحث وفصول هذا البحث. وما يؤكد أهمية هذا الأرشيف هو توفره على **تقارير دقيقة ومفصلة** خاصة بقبيلة آيت خباش بتافيلالت، دون غيرها من قبائل وقصور المنطقة، في الوقت الذي كانت فيه المادة المصدرية الوطنية والمحلية عاجزة تماما عن سد ثغرات هذا العمل بسبب ضآلة المعطيات السوسيواقتصادية الخاصة بالقبيلة زمن الاحتلال الفرنسي.

٦ – خطة البحث

لقد أدى تصور الموضوع ووضوح منهجه العام وغاياته الكبرى إلى وضع تصميم يستجيب لشروط بحث يتناول موضوع آيت خباش وفق منظور شمولي يراعي كل العلاقات والتداخلات التي يمكن أن تجمع هذه القبيلة بالمخزن وبالزوايا وسكان القصور، بالإضافة إلى الإدارة الاستعمارية المحرك الرئيس لمعظم الحركات الترحالية التي عرفتها قبائل التخوم ابتداءً من سنة ١٩٠٠م في اتجاه واحات تافيلالت. من هنا جاء تصميم هذا البحث على الشكل التالي: مقدمة، وستة فصول، وسبعة عشر مبحثا وخاتمة فضلاً عن الملاحق والفهارس.

تطرقت المقدمة إلى أهمية ودوافع وصعوبات البحث، فضلاً عن إبراز إشكاليته وأهدافه ومنهجه. وخصص الفصل الأول للبحث في "**آيت خباش ومجالهم الجغرافي**"، من خلال دراسة دلالة الاسم، وأصول القبيلة، وبطونها، وأفخاذها. فضلاً عن توضيح الخصوصيات المجالية لآيت خباش، عبر تأثير العناصر الطبيعية مثل الموقع والطبوغرافيا والمناخ والموارد المائية في تطور الأوضاع العامة للقبيلة.

وتناول الفصل الثاني "**التنظيمات الاجتماعية لآيت خباش وعلاقتهم بالقبائل المجاورة لهم**"، هذه التنظيمات التي كان لها دور أساسي في تنامي النفوذ السياسي والاجتماعي لقبيلة آيت خباش، باعتبار أهمية التنظيم القبلي في الحفاظ على التماسك الاجتماعي، وأيضا في صلابة الشخصية الخباشية، سواء تعلق الأمر بآيت خباش الرحل المستوطنين للصحاري والحمادات، أو آيت خباش المستقرين بالقصور والدواوير. ففي كل الأحوال والظروف أسهمت "الأعراف" و"اجماعة" كمؤسسات اجتماعية بشكل فعال في تنظيم المجتمع الخباشي، عن طريق صيانة وتطوير القوانين العرفية التي مثلت مصدر قوة بالنسبة لقبائل الرحل عموما وقبيلة آيت خباش خصوصًا، لأن هذه الأخير جمعت بين نمطي عيش مختلفين؛ جزء من القبيلة يتبنى أسلوب الترحال وآخر خاضع لحياة الاستقرار وثالث يجمع بين الترحال والاستقرار.

وتطرق المبحث الثاني من هذا الفصل لعلاقة آيت خباش بالقبائل المجاورة لهم؛ حيث بين أن هذه العلاقة تميزت بالتعدد والتنوع، فمن جهة ربط آيت خباش علاقة مع الرحل تنوعت بين الصراع حينا والتعاون أحيانا، وذلك تبعا لتوافق مصالح هذه القبيلة مع مصالح الرحل، أو تعارض مصالحهما، حيث تأسست غالب العلاقات بين القبائل الرعوية على مبدأ "المصالح"، وعليها عقدت جل التحالفات والأوفاق، ومتى تم الاخلال بمصلحة قبيلة ما فإنها تنتفض وتفسخ تحالفها أو اتفاقها السلمي مع القبيلة أو مجموع القبائل الأخرى التي كانت حليفة الأمس وأصبحت عدوة اليوم.

بالإضافة إلى نسج قبيلة آيت خباش لعلاقات مع قبائل الرحل بالتخوم الشرقية، حاولت ربط علاقات مع القبائل المستقرة بقصور تافيلالت. بيد أن هؤلاء المستقرين كانوا موزعين على تحالفين قبليين كبيرين ومتضادين: حلف آيت عطا من جهة، وحلف آيت يفلمان من جهة أخرى، وبحكم انتماء آيت خباش لاتحادية آيت عطا فإن هذا الأمر كان يسبب لها متاعب جمّة في علاقتها بالقصور الخاضعة لحلف آيت يفلمان[٢]، إذ كثيرًا ما نشبت بينها وبين هذه الأخيرة حروب وصراعات أزهقت العديد من الأرواح وأهلكت الحرث والضرع. لذلك حاول الخباشيون تقدير مصالحهم والاستشارة مع شيوخ عظامهم في كل ما يتعلق بالعلاقات مع القبائل الأخرى سواء كانت من الرحل أو من المستقرين، من داخل التحالف العطاوي أو من قبائل تابعة للحلف اليفلماني.

أما الفصل الثالث فيختص بدراسة "**آيت خباش بين تحريض الزوايا لمواجهة الاحتلال الفرنسي وممانعة المخزن**"، من خلال فهم طبيعة العلاقة بين حركة المقاومة الخباشية بكل من الزوايا من جهة، والمخزن من جهة أخرى، بينما تناول الفصل الرابع "**مواجهة آيت خباش للقوات الفرنسية بتافيلالت**"، هذه المواجهة لم تكن وليدة القرن العشرين، بل تعود لعقود من الزمن قبل السيطرة الاستعمارية على واحات التخوم الشرقية للمغرب. وقد كان للمؤهلات العسكرية والمهارات الحربية لآيت خباش دورا أساسيا في عملية المقاومة والجهاد وإلحاق العديد من الهزائم بوحدات الجيش الفرنسي رغم التفاوت الكبير بينهما في الأسلحة والعتاد العسكري.

وفي هذا الإطار شارك آيت خباش رفقة قبائل المقاومة بكل من تافيلالت والتخوم الشرقية في الجهاد ضد الغزاة بالجزائر، عن طريق دعم زعماء المقاومة الجزائرية وفي مقدمتهم الأمير عبد القادر وأولاد سيدي الشيخ وبوعمامة. بيد أن المقاومة الخباشية ستستعر نيرانها بعد غزو واحات التخوم الشرقية خاصة توات والعبادلة وتيديكلت سنة ١٩٠٠م، الشيء الذي جعلها تقوم بملحمة تاريخية ضد الفرنسيين في معركة "تيميمون" سنة ١٩٠١م، حيث ستلحق هزيمة نكراء في صفوف وحدات الجيش الفرنسي المرابط في هذا المركز. كما تزايدت مقاومة القبيلة بعد ذلك من خلال مساهمتها الفعالة في معارك بوذنيب ١٩٠٨م ومعركة مسكي في ٩ يوليوز ١٩١٦م ومعركة المعاضيد في ١٦ نونبر ١٩١٦م، ثم معركة البطحاء خلال ٩ غشت ١٩١٨م. وقد استمر آيت خباش في الجهاد والمقاومة على الرغم من احتلال الطاوس سنة ١٩٣١م وتافيلالت في يناير ١٩٣٢، وذلك مع آخر زعمائهم الميدانيين "أحمد أو ماما باني" الذي اغتاله الفرنسيون في شتنبر ١٩٣٨م بقصر تنغراس جنوب غرب الواحة الفيلالية، وبمن ثمة أسدل الستار بشكل رسمي على مقاومة آيت خباش بمنطقة تافيلالت.

أما الفصل الخامس فقد عالج مسألة "**آثار الاحتلال الفرنسي على الوضعية الاقتصادية لآيت خباش**" عبر إبراز خصائص الأنشطة الفلاحية في منطقة آيت خباش بتافيلالت، من الإنتاج الزراعي وغرس الأشجار إلى تربية الماشية وزيادة عدد القطعان، بيد أن هذه الأنشطة كانت متباينة كما ونوعًا، بين كل من رحل القبيلة ومستقريها. وقد كان للتدخل الفرنسي في الفلاحة الخباشية آثارًا إيجابية على أوضاع آيت خباش المستقرين؛ عكس التدخل الفرنسي في الأنشطة الحرفية والتجارية الذي أسهم في نتائج سلبية، وتدهورت جراء ذلك معظم هذه الميادين لصالح الصناعة العصرية الأجنبية، ولصالح أيضا التجارة والتجار الأجانب الذين استفادوا من امتيازات السياسة الفرنسية الجديدة.

تطرق الفصل السادس والأخير من هذا العمل إلى البحث في "**انعكاسات الاحتلال الفرنسي على الأوضاع الاجتماعية لآيت خباش**"؛ حيث أسهم تزايد الزحف الاستعماري على الخباشيين ومحاصرة مجالهم الجغرافي في تضييق الخناق على حركتهم الترحالية ونشاطهم الرعوي. الشيء الذي أدى إلى هجرة معظمهم إلى تافيلالت والاستقرار بقصورها، خاصة بعد إطباق السيطرة الفرنسية على الواحات التخومية مطلع القرن العشرين (١٩٠٠م). لذلك نهجت فرنسا مجموعة من الوسائل والآليات قصد تشجيع رحل آيت خباش على الاستقرار والاندماج في حياة سكان القصور، تجلى ذلك في توفير فرص الشغل لهم في أوراش المناجم بالطاوس وفي الجيش، وبضيعات المعمرين بالجزائر. أما **الخاتمة** فكانت عبارة عن تلخيص مركز لأهم الخلاصات والاستنتاجات التي توصلت إليها هذه الدراسة في انسجام مع الإشكالية الموجهة لها، مع إبراز بعض القضايا والإشكالات التاريخية التي يمكن أن تشكل امتدادا لهذه الأطروحة مستقبلا.

٧ - صعوبات البحث

على الرغم من المخاوف التي شعرنا بها خلال السنوات الأولى لتسجيل هذه الرسالة، بسبب الصعوبات الكبيرة والكثيرة التي واجهتنا في طريق البحث عن الوثائق، وما رافق متاعب البحث عن الوثائق من مشاكل في ضبط مسارات البحث وتوجهاته الكبرى، فإن هذا الأمر أصبح محسوما لدينا، وتم تأكيد متابعة البحث والتنقيب عن تاريخ آيت خباش، وعن العوامل المتحكمة في استقرارهم بمنطقة تافيلالت، بحكم انتمائنا لهذه المنطقة أولا، ومجاورتنا للرحل بمسقط رأسنا في مقاطعة "الغرفة" جنوب شرق هذه الواحة ثانيا. وهذا بطبيعة الحال ما قوى عزيمتنا في الصبر على تحمل أعباء ومشاق هذا البحث. وينبغي الإشارة بخصوص صعوبات البحث إلى أن أغلبية العائلات والأسر المستقرة بمنطقة تافيلالت ترفض الإفصاح عما يوجد بحوزتها من وثائق وشواهد، كما ترفض إمداد الباحثين بنسخ من الوثائق التي بين أيديها. وهذا ما يطرح في الحقيقة إشكال المقارنة بين الوثائق الفرنسية والوثائق المحلية، فيصبح الحكم على قضية ما أو توجه أو سياسة ما غير قطعي، وحمال أوجه، نظرا لافتقاد الباحث للشواهد المحلية المكتوبة والموثقة.

وارتباطًا بالعمل الميداني نسجل أن الخزانات المحلية في منطقة تافيلالت لم تسعفنا في تعميق البحث في التاريخ السياسي والسوسيواقتصادي للرحل عموما وآيت خباش خصوصا، وكذا في دراسة ظاهرتي الترحال والاستقرار في ارتباطهما بالتوغل الاستعماري بالحدود جنوب شرق البلاد منذ أواخر القرن ١٩ ومستهل القرن ٢٠م؛ على الرغم من وجود بعض الخزانات المتواضعة لبعض زوايا المنطقة، كزاوية الماطي، وزاوية سيدي الغازي بلعربي وزاوية ويغلان، فإن معطيات مخطوطات ووثاق هذه الزوايا ظلت بعيدة كل البعض عن موضوع دراستنا، باستثناء بعض الإشارات القليلة جدًا من هنا وهناك. كما أن الخزانات المحلية الخاصة بالأسر والعائلات سواء كانت من فئة الأعيان أو من ممثلي المخزن خلال الفترة الاستعمارية، لم توفر ما يشفي الغليل بخصوص موضوع الدراسة مع كل الأسف، بيد أن معظم ساكنة القصور لم يُبد ذلك التفاعل المطلوب، بحيث كان تواصلهم بخصوص موضوع الرحل فاترا. وعلى الرغم من توفر بعضهم على وثائق خاصة، قد تكون فيها إشارات مهمة لبحثنا، فإننا لم نستطع الحصول على أي من تلك الوثائق قصد الاطلاع عليها أو نسخها، "لسبب من الأسباب!"

الخلاصات والامتدادات المستقبلية

انتهت هذه الدراسة إلى مجموعة من الاستنتاجات والخلاصات تجلت في إبراز أهمية تماسك أفخاذ وبطون قبيلة آيت خباش في وحدة صفها، وفي عِظَم تأثيرها، ليس على قبائل وقصور تافيلالت فحسب، بل شمل ذلك التأثير معظم قبائل الجنوب الشرقي. كما ارتبطت قوة آيت خباش كذلك بتنظيماتهم الاجتماعية، التي كان لها دور أساسي في تنامي نفوذهم السياسي والاجتماعي، نظرًا لأهمية تنظيمهم القبلي في الحفاظ على التماسك الاجتماعي الداخلي للقبيلة، سواء تعلق الأمر بآيت خباش الرحل، أو آيت خباش

المستقرين، حيث أسهمت "الأعراف" و"اجماعة" كمؤسسات سياسية واجتماعية بشكل فعّال في تدبير الشؤون العامة للقبيلة، وفق رؤية تنسجم مع تحقيق المصلحة الفضلى لجميع أعضائها. ولتحقيق ذلك، كان من اللازم حفظ وصيانة القوانين العرفية، بل وتطويرها من أجل مسايرة مستجدات ظروف وأحوال المجتمع الخباشي. وقد كانت علاقة آيت خباش بقبائل الجوار تتجه غالبا نحو التعاون وتبادل المنافع، من خلال عقد تحالفات دفاعية تجلت فيما سمي بتحالف "تافركَانت" الذي عقدته خلال القرن التاسع عشر الميلادي مع قصور بني امحمد شمال تافيلالت، وتحالف " تاضّا" الذي كان كثير الانتشار في العلاقات البينية للقبائل عموما وقبائل تافيلالت على وجه خاص. ومن المؤكد أن آيت خباش نسجت علاقات قوية مع عدد كبير من القبائل والقصور، كذوي منيع وأولاد جرير، وعريب، وآيت حمو وحميان ...، فضلاً عن قصور تافيلالت التي تباينت العلاقة معها بحسب نوع الحلف التي تنتمي إليه، وهكذا ربط آيت خباش علاقة تعاون مع القصور الخاضعة لحلف آيت عطا بحكم انتمائهم إليه، لكنهم في الوقت ذاته ارتبطوا بعلاقة صراع مع القصور المنضوية تحت لواء حلف يفلمان.

تعتبر هيمنة هذه القبيلة على موارد اقتصادية حيوية (الماء، مجال رعوي خصب، طريق استراتيجي، ساقية، مساحات زراعية ...) ضرورة ملحة، لها ما يبررها من الظروف الطبيعية والسوسيو اقتصادية التي جعلت آيت خباش ينخرطون في العديد من الصراعات والتحالفات القبلية، ويخوضون، من ناحية أخرى، مسيرات طويلة من التنقلات والرحلات الانتجاعية، أدت بمعظمهم إلى التحول من نمط الترحال إلى حياة الزراعة والاستقرار خاصة بعد الغزو الاستعماري لمجالهم الرعوي خلال نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. فكانت الأطماع الاستعمارية خلال هذه الفترة تتزايد سيما وأن قبيلة آيت خباش كانت تتميز بمجال جغرافي واسع، حاول المستعمر الزحف على أطرافه الشرقية بشكل تدريجي بغية تقليص مساحته، ومن ثمة تقزيم النفوذ الترابي للقبيلة وإضعاف قوتها الاقتصادية، من أجل إحكام السيطرة عليها، ثم تطويعها لخدمة المصالح الاستعمارية في مرحلة لاحقة.

استجاب آيت خباش وسكان تافيلالت عمومًا، لنداءات شيوخ الزوايا الداعية إلى جهاد النصارى؛ فكانا معا السباقين لصد التوغل الفرنسي بالتخوم الشرقية للبلاد، من خلال العديد من المعارك الدامية التي راح ضحيتها آلاف الشهداء. لكن على الرغم من تعرض حركة المقاومة المنطلقة من تافيلالت بزعامة آيت خباش لكثير من الهزائم والخسائر في الأرواح والعتاد، فإنها لم تستسلم، ولم تُلقِ السلاح، بل دافعت عن بلادها وأرضها، بكل شجاعة وإقدام، وبذلت الغالي والنفيس، في سبيل الحفاظ على حريتها واستقلالها. أضف إلى ذلك أن مقاومة آيت خباش لم تتلق الدعم اللازم من قبل المخزن السلطاني، وهذا ما شكل في واقع الأمر شرخا بين هذه القبيلة، والمخزن، الذي يبدو أنه قلب ظهر المجن لحركة المقاومة الخباشية، وكان رد فعله مخزيًا ومتخاذلاً، ولم يكن في مستوى تطلعات مجاهدي آيت خباش وكافة حركات المقاومة بمنطقة تافيلالت. وقد كان آيت خباش في مقدمة قافلة المجاهدين، بفضل خبرتهم الطويلة في مقارعة الأعداء والدخلاء سواء في الواحة أو الصحراء.

أسهمت الخبرة الطويلة لآيت خباش في خوض الحروب والمعارك، جراء ترحالهم المستمر وما واكب ذلك من مواجهات مفتوحة مع القبائل والعناصر التي كانت تعترض مسيرتهم الرعوية، فضلاً عن نفسهم الطويل في الصبر على مكابدة مشاق السفر ومخاطر الرحلات في حصول أفراد هذه القبلية على حظ وافر من الشجاعة، والإقدام وقوة الشكيمة. لذلك، شكل هؤلاء على الدوام شوكة في حلق المستعمر، الذي غالبا ما كان يضع معادلة آيت خباش ضمن حساباته، كلما ساورته أي فكرة بخصوص غزو تافيلالت. ويبدو أن هذا الأمر كان كافيا للدلالة على الهالة والمكانة الكبيرة التي تمتعت بها الشخصية الخباشية لدى الإدارة الفرنسية. وإذا كان أفراد القبيلة يمتلكون قدرا لا يستهان به من الأسلحة، فإن ما كان يمنح لهذا التسلح قيمته الحربية، هو براعة الخباشيين في استعمال بنادقهم، ومهاراتهم العالية في الغارات، وتسديد الضربات المباغتة والفجائية، الشيء الذي كان يقلق الفرنسيين ويزيد من حنقهم وضجرهم، بل ويربك حساباتهم، ويهوي في معظم الأحيان بخطط وتكتيكات قادة جيوشهم.

لقد فُرض على أهل تافيلالت وضمنهم آيت خباش أعمال السخرة أو العمل المجاني، لاسيما بعد إحكام السيطرة الاستعمارية على المنطقة والقضاء على آخر زعيم للمقاومة الخباشية بها خلال شتنبر ١٩٣٨. ولتحقيق هذه الغاية، أسندت مهمة تنفيذ هذه الأعمال لزمرة من القياد وبمساعدة الشيوخ والمقدمين؛ الذين شكلوا أداة البطش والتعذيب المسلطة على الساكنة، بما في ذلك سياسة الظلم

والجور التي نهجها هؤلاء القياد، ومن يدور في فلكهم، خاصة ضد الفقراء والمعدمين الذين لا يتمتعون بأي نفوذ أوجاه أو ثروة. ومن تجليات ذلك، ممارسة سياسة الضغط والتعسف والاستغلال على العمال، سواء من حيث طول ساعات العمل وعدم توفير المؤن، أو الإهانة لأتفه الأسباب، زيادة على إجبار الساكنة على توفير وسائل العمل والدواب، فضلاً عن بعض المواد الأساسية في أعمال البناء، كالحجر، والجير، والتراب، والأخشاب.

أدت هذه الممارسات إلى تزايد احتجاجات وتمردات آيت خباش، الشيء الذي جعل القيادة السياسية والعسكرية الفرنسية تصدر أوامرها لضباط الشؤون الأهلية بكل من "الطاوس" و"الريصاني" و"أرفود" بضرورة أخذ كل الاحتياطات اللازمة لتأمين مصالحها الاستعمارية بمنطقة آيت خباش بتافيلالت، وذلك عن طريق زيادة تشديد المراقبة، على كل أعمال وتحركات أفراد القبيلة بالواحة الفيلالية على وجه خاص. ولم تكن أعمال القمع والاستغلال السبب الوحيد لتنامي مقاومة الخباشيين، بل أسهم تقلب واضطراب نفسية ومعنويات آيت خباش في هذه المقاومة. لذا، فطنت سلطات الحماية إلى مدى دور تحسين وتطوير الظروف المعيشية لأفراد القبيلة في استقرار أوضاعهم السياسية والأمنية. مما جعلها تحرص على توفير الظروف الملائمة لممارسة الخباشيين لأنشطتهم الزراعية والرعوية، بهدف تهدئة نفوسهم وتسكين روعهم.

بيد أن هذه السياسة لم تكن فعالة بما فيه الكفاية؛ على اعتبار أن آيت خباش هم رحلا في الأصل، وحديثي العهد بالاستقرار، حيث عاش هؤلاء ظروفًا معيشية صعبة قبل فترة استقرارهم. كما كانت مسألة تحسن أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية، وتحقيق الاستقرار النفسي والأمني بمنطقتهم، رهينة بضرورة تكيفهم مع نمط حياة جديد، لم يعتادوا عليه في السابق، ولم يكن لهم على ما يبدو استعداد لخوض غماره. لذلك لم يستقر كل أفراد آيت خباش إبان فترة الاحتلال الفرنسي، ولم يكن استقرار معظمهم نهائيا؛ بل كان عبارة عن نصف استقرار، بحيث ظل الكثير منهم يمارسون الرعي والترحال إلى جانب الاستقرار بالقصور في فترات ومواسم معينة في السنة. هكذا سمي هؤلاء بأنصاف الرحل أو أنصاف المستقرين. وهذا ما يبين في الحقيقة صعوبة "المرحلة الانتقالية" التي عاشها آيت خباش بتافيلالت ورحل المنطقة عموما خلال هذه الحقبة؛ أي أن الانتقال من نمط الترحال والتجوال، إلى نمط الزراعة والاستقرار لم يكن بالأمر اليسير، على اعتبار مساهمة هذا التحول في إحداث تغيرات عميقة في حياة الرحل في مجموعة من المستويات: السوسيو اقتصادية، والذهنية، والعرفية.

شكل التدخل الفرنسي في **الأنشطة الفلاحية** لآيت خباش عاملاً رئيسًا في حدوث تحولات في هذا الميدان. فعلى الرغم من تنوع هذه الأنشطة بين الإنتاج الزراعي وغرس الأشجار وتربية الماشية، فإن ذلك لم يمنع من وجود تفاوتات كبيرة بين رحل القبيلة وبين أفرادها المستقرين خاصة على مستوى قطعان الماشية، التي سجلت ارتفاعا كبيرا لدى الفئة المرتحلة. كما أن السياسة الفلاحية الفرنسية بالمنطقة أسهمت في تطوير الميدان الفلاحي والتحسن النسبي لوضعية المزارعين الاقتصادية والاجتماعية، لاسيما المستقرين منهم. بينما أدى التدخل الفرنسي في الميدانين الحرفي والتجاري إلى نتائج عكسية، ولم يخدم سوى مصالح أرباب المصانع والتجار الكبار. والأمر نفسه حدث في الميدان المعدني، إذ كان استغلال ثروات آيت خباش بالطاوس وغيرها من مناطق إقليم تافيلالت هو الشغل الشاغل للشركات المنجمية التي كانت - في نهاية المطاف - تخدم المتروبول ومصالحه الاقتصادية بالمنطقة؛ فبعدما كان آيت خباش أسيادا للتجارة في تافيلالت والمتحكمين في تنظيم القوافل التجارية الصحراوية العابرة للحدود، تحول معظمهم إلى مجرد عمال في المناجم والضيعات الفلاحية التي استحوذ عليها المعمرون إبان فترة الحماية.

أثر الاحتلال الفرنسي لمجال آيت خباش على **أوضاعهم الاجتماعية**؛ فمنذ هزيمة إيسلي (١٨٤٤م) ومعاهدة لالة مغنية الحدودية (١٨٤٥م)، ووحدات الجيش الفرنسي تستغل كل الفرص للتحرش بهذه القبيلة وكافة قبائل الرحل بالتخوم الشرقية للبلاد، لكن الاختراق الاستعماري لمراكز هذه القبائل، أسهم في محاصرتها جغرافيا وضيق الخناق على حركتها الانتجاعية. اتضح ذلك في المخطط الاستعماري الرامي إلى خنق المواصلات التقليدية لهذه القبائل عبر بناء طرق ومسالك جديدة تُستخدم فيها القطارات عوض قوافل الجمال، مما أسفر في نهاية الأمر عن اختراق الاستعمار الفرنسي لكل واحات ومراكز تواجد القبائل المرتحلة. كما استخدم قادة الجيش الفرنسي وسائل أخرى اعتمدوها كمناورات من أجل غزو مجالات الرحل واحتلالها، وأبرزها اتخاذ ذريعة ضبط أمن الحدود ومطاردة المجاهدين لكسب مزيد من الأراضي

المغربية والتوسع على حساب مواطن قبائل آيت خباش، وذوي منيع وأولاد جرير.

وارتباطاً بالسياسة الاستعمارية نفسها تجدر الإشارة إلى نهج فرنسا لمجموعة من الأساليب والطرق للاستحواذ على الأراضي؛ مثل **استغلال الجوانب القانونية** في إثبات ملكية الأرض، والتظاهر بإدخال إصلاحات في تقنيات السقي واستصلاح أراضي البور، فضلاً عن سياسة تقزيم مساحة المستغلات الزراعية والمراعي والغابات. وعلى الرغم من غنى الثروات الطبيعية لمناطق الرحل وضمنهم آيت خباش، وأهمية مواردهم الاقتصادية والمالية خاصة من التجارة الصحراوية، وتوفرهم على عدد ضخم من قطعان الماشية، فإن تعرض مناطقهم للغزو من قبل قوات الاستعمار الفرنسي أسهم في أزمتهم الاقتصادية وأضعف مواردهم التجارية.

فكان الفرنسيون في كل الأحوال، ومن خلال مخططاتهم الاستعمارية، يهدفون إلى غزو الأرض وترويض القبائل، فضلاً عن سياسة **البلقنة الإدارية** التي نهجتها سلطاتهم مع رحل التخوم، وذلك عبر تقسيمهم إلى شطرين اثنين تابعين لإدارتين مختلفتين - جزء تابع للإدارة الجزائرية والثاني تابع للإدارة المغربية - بهدف ردع المقاومة من جهة، وتمهيدا لعملية استقرار هؤلاء الرحل وثنيهم على الاستمرار في حياة الترحال من جهة ثانية. مما نتج عنه تقلص كبير في المجالات الرعوية للرحل ومن ثمة تفاقمت أوضاعهم المعيشية، وساءت أحوالهم الاجتماعية. الشيء الذي ساهم في تخلي مجموعات كبيرة من الرحل بواحات زوزفانة وكَير عن أراضيهم وقيامهم بهجرات جماعية إلى تافيلالت التي شكلت آخر حلقة من سلسلة ترحالهم.

لا شك أن **تدهور الظروف الاقتصادية والاجتماعية** لآيت خباش بعد استحكام القبضة الفرنسية على الواحات الحدودية (إيكَلي، بشار، العبادلة، بني عباس ...)، واستنفاذها مع باقي قبائل التخوم الشرقية لكل إمكانيات ووسائل المقاومة بهذه المناطق، سيحتم على كل من **رفض الخضوع منها للاستعمار الفرنسي**، وأبى العيش تحت كنفه، **الهجرة** نحو الواحات والمناطق المغربية غير الخاضعة في تلك الفترة للاستعمار الفرنسي. وقد كانت منطقة تافيلالت في مقدمة الواحات التي انتقل إليها المهاجرون من المراكز الحدودية التي احتلتها القوات الفرنسية ما بين ١٩٠٠ و١٩٠٣، حيث مكنتهم واحات تافيلالت من ظروف سياسية واجتماعية جديدة، سيعملون من خلالها على إعادة ترتيب أوراقهم، وإعادة النظر في كل الخطط والتكتيكات الحربية التي كانوا يعتمدون عليها في سابق مواجهاتهم للقوات الغازية.

إن جدلية **استقرار الرحل بتافيلالت**، وضمنهم آيت خباش، تطرح تصورين اثنين؛ يتعلق الأول بمدى مساهمة **الظروف الطبيعية والبشرية** في هذا الاستقرار، والتصور الثاني يبرز **دور الاستعمار الفرنسي في هجرة واستقرار قبائل الرحل** ليس في واحة تافيلالت فحسب، بل في باقي واحات المعاضيد والرتب وبوذنيب ودرعة. غير أن النظر المتفحص في هذه المسألة يقودنا إلى القول بأن استقرار هؤلاء الرحل بمنطقة تافيلالت مبدئيا لم يكن وليد الفترة الاستعمارية خلال مطلع القرن ٢٠م، بل يعود إلى فترات مبكرة من القرنين ١٨ و١٩م، وربما قبل ذلك، لأسباب طبيعية ومناخية، تجلت في استمرار سنوات القحط والجفاف، وتفشي الأمراض والمجاعات في صفوف الرحل، الشيء الذي أجبرهم على الاستقرار ومزاولة أنشطة متنوعة توفر لهم مداخيلها الوقاية من الهلاك جوعا. كما أسهم تغلب "العصبية الرحّلية" على "العصبية القصورية" في معظم الأحيان في استحواذ الرحل على قصور المستقرين، ومن ثمة استقرارهم بها أو بناء قصور جديدة بجوارها، بيد أن هذا الاستقرار لم يكن نهائيا لدى أغلبهم، الذين ظلت عائلاتهم وأسرهم تجوب الصحاري والواحات بقطعانها وخيامها طيلة هذه الأزمنة طلبا لمنابع المياه ومصادر العشب والكلإ.

أما التصور الثاني الذي يتبنى طرح "الدور الفعال للاستعمار الفرنسي في استقرار الرحل" وهو الراجح عندنا خاصة مع مطلع القرن العشرين، فيظهر من خلال إسهام استمرار حركة الجهاد والمقاومة لدى آيت خباش على أرض تافيلالت، في جعلهم محط اهتمام سلطات الاستعمار الفرنسي، التي وضعت العديد من المخططات السياسية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية قصد جلبهم إلى حضيرة الخاضعين، ومن ثمة إدماجهم في بوتقة الساكنة التي تستجيب للسياسة الفرنسية. وعليه، كان توفير **فرص الشغل** للخباشيين في مناجم الطاوس وفي الجيش، وأيضا بضيعات المعمرين بالجزائر كلها وسائل وآليات نهجتها السلطات الفرنسية قصد تشجيع رحل آيت خباش على **الاستقرار والاندماج في حياة سكان القصور**، على الرغم من أن هذه التدابير ستؤدي دون شك إلى تحولات عميقة لهؤلاء الرحل على المستوى الذهني، والاقتصادي، والاجتماعي، والسياسي، والمعيشي.

وقد بذلت سلطات الاحتلال جهودا حثيثة في تثبيت واستقرار آيت خباش في قصور واحة تافيلالت وهوامشها الشرقية والغربية. فاستخدمت لتحقيق ذلك **أسلوب الترغيب والترهيب**، عبر مساعدة القبيلة على غرس أشجار النخيل، وتوفير فرص الشغل لبعض شبابها سواء في **الجيش** أو **المناجم** من جهة، وممارسة سياسة تعسفية ضد الخباشيين، خصوصا خلال فترة عصيانهم أو تنظيمهم لمظاهرات من جهة أخرى. فكانت تقوم بتشديد القيود على التجار الذين يبيعون السكر، والشاي والزيت، والملابس الصوفية إلى الخباشيين، في إشارة إلى تطبيق نوع من الحصار الاقتصادي على القبيلة والحد من حصولها على هذه المنتجات الحيوية، كآلية من آليات الردع والقهر، لإخضاعها وإخماد جذوة تمردها ومقاومتها. ومع ذلك، استمر **تعنت الخباشيين وتمردهم ضد السياسة الفرنسية** بالمنطقة طيلة الفترة الاستعمارية، بسبب **طباعهم الفظة والغليظة والعنيفة ضد المحتلين**، مما أسهم في استمرار مهادنة الفرنسيين لهم طيلة فترة الحماية، حيث لم تتمكن الإدارة الفرنسية من تحويل كل الخباشيين بتافيلالت إلى حياة الاستقرار، رغم مجهوداتها الكبيرة الرامية إلى تحقيق هذا الهدف.

يمكن القول إذا، أن الوسط الطبيعي لآيت خباش بتافيلالت أثّر على وضعيتهم الاقتصادية والاجتماعية، حيث إن إشكالية تقلص الأراضي الزراعة دفعت المستقرين منهم إلى غرس أشجار النخيل، قصد تحقيق دخل مالي إضافي، خاصة في سنوات القحط والجفاف، حيث بالكاد يجد الناس ما يسدون به رمق عيشهم، فقلة الأمطار وعدم انتظامها يحد من تزايد الإنتاج ويفرض اقتصاد الندرة، بيد أن التغلب على العواقب الوخيمة للتقلبات المناخية، دفع سكان تافيلالت وضمنهم آيت خباش إلى تنويع مصادرهم المالية؛ عن طريق الجمع بين الزراعة والغراسة وتربية الماشية، وعوض أن يعتمد الفلاح على منتج التمور فقط، يمكنه أن يزرع القمح والشعير، أو يربي بعض رؤوس الماشية. فإذا خسر في هذا المورد ربح في الآخر.

خَاتِمَةٌ

وختامًا لا يدعي الباحث الإلمام بكل التحولات الاقتصادية والاجتماعية لآيت خباش تافيلالت زمن الاحتلال الفرنسي، لأن هذا العمل لا يعتبر سوى تمهيدا لأعمال أكاديمية لاحقة بإذن الله، نظرًا للعديد من الفجوات التي لم يتمكن البحث من سدها على اعتبار أن خلاصات واستنتاجات هذه الدراسة تبقى قابلة لتعميق البحث والتحليل من قبل باحثين آخرين.

وتجدر الإشارة إلى أن بعض القضايا التي أثارها هذا البحث تحتاج إلى مزيد من البحث والتنقيب، وحسبنا أن تكون امتدادًا لعملنا مستقبلاً، بحيث يمكن أن تشكل موضوعات لدراسات وأبحاث من مشارب فكرية ومعرفية متنوعة لتحقيق التراكم التاريخي والمعرفي الكفيل بإلقاء مزيد من الأضواء على كل ما يهم استقرار قبائل الرحل بتافيلالت عمومًا وقبيلة آيت خباش خصوصًا خلال التدخل الاستعماري الفرنسي مطلع القرن العشرين. وتتجلى بعض الموضوعات التي قد تشكل امتدادات لهذه الأطروحة فيما يلي:

- أهمية العرف واجْماعة في تنظيم المجتمع القبلي لآيت خباش.
- دور تحالفات تاضّا وتافركانت في تمتين علاقة التعاون بين آيت خباش والقبائل الأخرى.
- آثار السياسة الفرنسية على آيت خباش الرحل: ١٩٠١ – ١٩٣١
- آيت خباش من الترحال إلى الاستقرار: المظاهر والتحولات
- المرافق الصحية والتعليمية بمنطقة تافيلالت على عهد الحماية الفرنسية
- التحولات الاقتصادية والاجتماعية لآيت خباش خلال فترة ١٩٣٨ - ١٩٥٦
- استقرار رحل آيت خباش بالمركز الحضري للريصاني: الأسباب - الظروف - الانعكاسات.

الاحالات المرجعية:

(١) كان هذا البحث موسومًا بـ: " **التاريخ الاجتماعي لتافيلالت خلال القرن التاسع عشر (١٨٤٥ - ١٩٠٠)، من خلال وثائق مخزنية**"، تحت إشراف المرحوم أحمد البوزيدي، نوقش بكلية الآداب ظهر المهراز في يوليوز ٢٠١٠. ونال فيه الطالب عبد الرحمان ملوكي ميزة حسن جدًا.

(٢) تجدر الإشارة إلى اختلاف الباحثين في كتابة هذا المصطلح؛ فمنهم من يكتبه "آيت **يافلمان**" وآخرون يكتبونه "آيت يفلمان" (بدون الف "١"). غير أننا سنعتمد في هذه الدراسة على الاختيار الثاني؛ أي **آيت يفلمان** لاعتبارين اثنين: ويهدف الأول إلى **توحيد رسم المصطلح** على امتداد فصول ومحاور هذا العمل، في حين يتجلى الاعتبار الثاني في **الدلالة اللغوية** لمصطلح آيت يفلمان، الذي يتشكل من كلمتين أمازيغيتن: "آيت" وتعني **أهل**، و"يفلمان" بفتح الياء وتعني **وُجِدَ الآمان** وبضمها تعني **الآمان**. والمغزى العام من **آيت يفلمان** هو تحقيق الآمان ونبذ الفوضى واللااستقرار وتفادي الصراعات القبلية، وهي الغايات الكبرى التي أسس من أجلها حلف **آيت يفلمان**.